تطبيق 14/ نقاط الالتقاء بين الآداب المغاربية

1.الشّعر:

ان المتتبع بالبحث والتحليل تلك التحولات في التجربة الإبداعية للخطاب الشعري المغاربي الحديث والمعاصر، من حيث التشكيلات النصيّة واللغوية سيشهد ذلك الانتقال للإنتاج الشعري من الاهتمام بالمضامين إلى التشكيل الايقاعي والخيالي وهاذ تبعا لتغيرات القيم الفكرية والثقافية في نظام الحياة المعاصرة. واستنادا إلى هذه التحولات، يمكن الإشارة إلى مختلف المراحل التاريخية التي عرفتها الممارسات النصيّة الشعرية كنماذج نستطيع الاشتغال عليها لبيان مسوغات هذا التجاوز . هذا الانتقال للخطاب الشعري العربي في المغرب العربي من مرحلة لمرحلة يساهم في تأسيس تجربة إبداعية للشعر قوامها المغامرة ومنطق الاختلاف، فصار منفتحا على الثقافة الإنسانية العالمية، وبيان ذلك هو التحولات الجمالية والتعبيرية الجديدة، التي رافقت النصوص الشعرية المعاصرة في تلك الإبداعات النصيّة.

ودراسة هذه النماذج كفيل ببيان هيمنة الأنموذج العمودي في الشعر العربي القديم، تحت مصطلح القصيدة باعتباره معيارا كاملا في اعتقاد الإنسان العربي،

لقد عرف المشهد الشعري في المغرب العربي منذ عصر النهضة سيطرة لما يسمى بعمود الشعر والسير على نهج الخليل وتأثره أيضا بكل الانتاجات الشعرية التي كانت حينها نموذجا يقتدى به في المشرق كفحول الشعر الجاهلي ورواد الشعر السياسي في صدر الاسلام ورواد حركة التجديد الشعر في العصر العباسي، لذا كانت أكثر العبارات تداولا حول الشعر المغاربي هو انه امتداد طبيعي للشعر المشرقي، وارتباطه بتلك الجهود الأولى التي قام بها رجال النهضة الأدبية في مصر وباقي البلدان العربية لإحياء تعاليم الدين الاسلامي وجماليات اللغة العربية

طبعا ازداد الأمر وساعة في العصر الحديث مع كثرة الغزاة التي كان يتعرض لها المغرب العربي واحتكاكه الدائم مع البلدان المختلفة، ثم خضوعه في النهاية للغزو الاستعماري الذي أسهم في ظهور أدب مكتوب باللغة الفرنسية، وهذا وان ساهم في طرح مشكلة الهوية واللغة التي أنتج بها الشعراء قصائدهم وأعمالهم الابداعية إلا انه مكن الادب المغاربي عموما من طبعه بطباع خاص جعلت مشكلة المرجعية الادبية تتوسع خارج حدود المشرق العربي لتنفتح على الآداب الغربية الفرنسية تحديدا. ومع ذلك فقد ظل الشعر المغاربي يربط ماضيه وبحاضره ويحاول ان يزاوج بين التراث والحداثة مما اكسب تجربة الشعراء ميزة خاصة ومنحت الشعرية المغاربية بنية مستقلة ، ظهرت بوضوح في الرؤى والصور المستخدمة.

نقصد بالشعر المغاربي تلك النصوص الشعرية التي أنتجها شعراء المغرب العربي، والتي كتبت باللغة العربية، اضافة الى اللغة الفرنسية التي بقيت سائدة في المنطقة بحكم خضوعها للاستعمار الفرنسي طويلا، بغض النظر عن تعدد الأنماط التعبيرية ضمن هذه اللغات، وعن تنوع الطرائق الفنية التي اختاروها في تجارهم لتجسيد ذواتهم الفردية والجماعية ضمن الجنس الشعري. فهذا الشعر له خصوصيته ونقول ذلك من منطلق ان الانسان ابن بيئته، ولن يكون تفكيره سوى انعكاسا موضوعيا لما عايشته ضمن هذه المنطقة الجغرافية التي حتما لديها خصوصيتها وعاداتها وثقافتها، من هنا فان الحديث عن أدب أي منطقة يفرض علنا تسميته باسم المنطقة التي ينتمي اليها، فهو في النهاية سيكتسب معالم البيئة وثقافتها، لقد جبل الانسان على الفة المكان، الذي يصنع معالم شخصيته وسلوكه، فالمكان في النهاية هو "**الاقليم الذي يعيش فيه البشر عيش قرار واستيطان او يضطرب بين حدوده، فتتاثر حياته الحسية والمعنوية بطبيعة هذا الاقليم وخواصه**".

يزداد هذا التأثير عند الشاعر والأديب لأنه الى جانب كونه فرد من المجتمع، فهو اكثرهم تفاعلا معه ايجابيا او سلبيا، نظرا لطبيعته المرهفة وخياله الواسع، وإحساسه بالمسؤولية، وأقدرهم على التعبير عن حال المجتمع في اشكال تعبر عن صور تفاعله، وعن رؤيته الابداعية والفكرية.

وقد شكل المكان في العصر الجاهلي قاعدة فنية داخل الشعر، وأصبح يحتل اطلالة القصيدة في مقدمة تعبر عن مدى تعلق الشاعر بأطلال قبيلته وبرسوم ذاكرته، وليس ذلك فحسب بل ان الشاعر كان خير من دافع عن قبيلته وعن أعرافها، منتقلا بعدها الى التغني بوطنه، داعيا الى الحفاظ عليه، وعلى قداسته. وبقيت نهضة الشعر في المغرب العربي مرتبطة بالتحرر من الاستعمار الغربي، وطبعا النهضة هنا هي الحركة والتجديد بالمفهوم العربي، الذي يوحي بأنه هذه الحركة قامت ضذ الجمود والركود. ثم الرغبة في التجديد في تجاوز هذا الشكل الذي قيّد حرية المبدع. وبوصول القصيدة إلى مرحلة الكتابة الشعرية المعاصرة تم الانفتاح على فلسفة الشعر وتجربة المغامرة، الأمر الذي جعل الإبداع الشعري يدخل مرحلة التجريب وبلاغة الأشكال الجديدة، التي تحتفي بالفراغ والبياض بغية تحقيق بلاغة بصرية، ومنه تعمقت الرؤية النقدية بخصوص تقريب النثر من الشعر والجمع بينهما في نص واحد مع المحافظة على الوزن والقافية.

2.النّثر

تناولت النصوص النثرية المغاربية موضوعاتٍ متعددةً من خلال مسارات مختلفة، ففي البداية كانت تحمل طابعًا للوعظ والإرشاد، وهذه المرحلة كانت مرحلة التأسيس، بعدها جسَّدت الروايات

البعدَ القومي وسياسةَ الاحتلال والاستعمار، ثم الرجل والمرأة والقضايا المختلفة التي يواجهها الإنسان والمجتمع، فقد قدمت الروايات صورةً للواقع الاجتماعي من فقر وجهل وآمال وطموح، ثم تطورت كتابة الرواية فأصبحت تناقش علاقة الذات بالآخر، من خلال الرغبة في التعايش؛ لذلك أصبحت الرواية أكثر التصاقًا بالتجربة الشخصية في مختلف أشكالها اليومية، وابتعدت عن الهموم كما كانت في السابق، بعد ذلك طرأ عليها تطور آخر لتصبح محورًا فكريًّا في الرواية المعاصرة، فبدأت الرواية تُعبِّر عن السياسة بطريقة مباشرة، فأصبحت تعالج الموضوعات السياسية والوطنية، وصراع الأجيال بين الآباء والأبناء وانهيار السلطة والجهل والسجون وغيرها.

ففي مجال الرواية مثلا اتجهت الرواية المغاربية نحو التقاط اللغات واللهجات التي تتفاعل في رحم المجتمع وتتناسل في نسيجه مُولدةً لغة أخرى، وهذه الأخيرة هي بذور وعي لغوي وتعامل جديد مع اللغة. إن هذا التعدد للمستويات اللغوية الحاملة لتلك الأصوات الاجتماعية والفردية والثقافية، التي أسهمت بشكل كبير في تحويل النص الروائي المغربي إلى فضاء يتسع للغاتٍ متعددة ومتباينة، تناسب أوضاع الشخصيات، وتكشف عن عوالمهم ومعتقداتهم المختلفة.

هذا التعدد اللغوي الذي منح النص الروائي منحًى جديدًا على مستوى الشكل والتخييل ترتسم فيه بنية لغوية متعددة الصوت واللسان والأسلوب، عبر هذا التصوير الجامع بين العديد من اللغات.

المراجع:

طالب خليف جاسم السلطاني، الأدب العربي الحديث "مختارات من الشعر والنثر